أبو الوليد الباجي الأندلسي

حياته وما تبقى من شعره

واقدة يوسف كريم

جامعة تكريت .كلية التربية / سامراء . قسم اللغة العربية

المقدمة

إن استطراد القول للمتأمل في التراث العربي الأندلسي ينتابه شعور بالفخر والاعتزاز بما خلفه أجدادنا في تلك الديار في حقبة تاريخية محددة , كان لهم شأن عظيم تركوا فيه بصمات واضحة على الحياة العلمية والفكرية في عصرهم وفي لحظات لاحقة. والمتصفح لكتب التراجم للعلماء والشعراء يكتشف ذلك من دون عناء كثير ، لذا سأعرض في هذا البحث لحياة واحد من هؤلاء الأعلام المتميزين وعطاءاته . وهو أبو الوليد الباجي الأندلسي .

تناولت فيه أسمه ولقبه وحياته منذ نعومة أظفاره بشكل موجز واف ، ووفاته ومؤلفاته ثم الحديث عن شعره والأغراض التي قال فيها إذ اقتصرت أغراضه الشعرية على المديح ورثاء الأبناء والزهد . ثم ختمت البحث بنتائج توصلت إليها من خلال هذا البحث .

اسمه ولقبه :

هو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب بن وارث[١] , التجيبي القرطبي[٢] المالكي الأندلسي الباجي[٣] , الفقيه المتكلم المحدث المفسر الأديب الشاعر[٤] .

حياته :

ولد في مدينة بطليوس مسقط رأس عائلته يوم الثلاثاء النصف من شهر ذي القعدة في من العام (٤٠٣هـ) ، ونشأ في وسط أسرة علم وتقوى ونبل وحسن تدين ، فكان والده أبو سليمان بن خلف بن سعيد من أهل العفة والصلاح ، ووالدته أم سليمان فقيهه[٥]عابدة ، وهي بنت فقيه الأندلس أبي بكر محمد بن موهب القبري المعروف بالحصار ، فهو جده لأمه ، وخاله الخطيب أبي شاكر عبد الواحد بن محمد المعروف بالقبري ، وهو أحد شيوخ القاضي أبي الوليد الباجي[٦].

في وسط هذه الأسرة العربية الأصيلة ، وفي كنف هذه البيئة العلمية نشأ أبو الوليد الباجي ونال حظه من التربية الحسنة ، وأخذ تعليمه الأولي في سن مبكرة ، وشعر برغبة أكيدة في طلب العلم ، عمل على تحصيل مدارك العلوم والمعرفة بشتى الوسائل تدريجياً ، ولما وجد في نفسه قد استوعب علوم الأندلس ، وتلمس في نفسه عزماً قوياً للمزيد من طلب العلوم قرر الرحيل وقد بلغ الثالثة والعشرين من عمره ، فتوجه إلى المشرق ناهلاً علمه من عدد من علمائها ، ففي الحجاز تتلمذ على يدي أبي ذر بن أحمد الهروي [٧]. وأقام ثلاثة أعوام وحج أربع حجج ، ومن الحجاز اتجه إلى بغداد [٨] وهو لا يزال متعطشاً إلى المزيد من العلوم يدرس الفقه ويقرأ الحديث ، وتتلمذ على يدي أبي الفضل بن عمروس [٩] أمام المالكية. ثم رحل إلى الموصل وأقام عاماً كاملاً يدرس على يدي أبي جعفر السمناني [١٠] ، ودخل مصر[١١] ، وعمل قاضياً لمدة سنتين[١٢].وقضى أيامه الدراسية بالمشرق نحو ثلاث عشره سنة من المثابرة في الطلب والاجتهاد في التحصيل ، لا يهاب في سبيل تحقيق رغبته حر الصيف ولا برد الشتاء . وفي ذلك قال أبو علي بن سكرة(ما رأيت مثل أبي الوليد ، وما رأيت أحداً على هيئته وسمته وتوقير مجلسه)[١٣] ، فلما حقق رغبته وأشبع حاجته وقضى منيته ، وجد في نفسه حنين الديار وأحس بالشوق للأهل والأحباب قرر العودة إلى الأندلس ، وذلك في العام (٤٣٩ هـ) فرجع بعلم جم مع الفقر والقناعة. ثم عمل بضرب ورق الذهب للغزل ، وعقد الوثائق ، إلى أن فشا علمه وتهيأت له الدنيا وشهرته تغني عن وصفه[١٤] ، وأجزلت صلاته ، وولي القضاء في بعض أنحائها[١٥] . وحين عاد وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة ، فمشى بينهم في الصلح وهم يجلونه في الظاهر ، ويستثقلونه في الباطن ، ويستردون نزعته ، ولم يفد شيئاً[١٦] . فقد كان ملوك الطوائف (عظامًا ناخرة)[١٧] وإن تقلده للمناصب كانت تقلل

من قدره وعلمه[١٨] . وخلال هذه الحقبة حدثت الكثير من المناظرات ، أبرز مناظراته وأشهرها كانت مع ابن حزم الاندلسي . فقد قال له الباجي : (أنا أعظم منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته أنا وأسهر بقنديل بائت السوق ، فقال ابن حزم:هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أرجُ به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة فأفحمه)[١٩]

وفاته:

توفي أبو الوليد الباجي ليلة التاسع عشر من شهر رجب عام (٤٧٤ هـ)[٢٠] في المرية بالأندلس[٢١] . ليلة الخميس بين العشاءين ودفن يوم الخميس بعد صلاة العصر على ضفة البحر ، وصلى علية ابنه القاسم[٢٢]وقبره هناك يزار[٢٣].

مؤلفاته :

خلال رحلته العلمية والفكرية من الأندلس إلى المشرق والرجوع إلى بلده ألف لنا الكثير من المؤلفات في علوم شتى ، وأشهرها في علوم الدين الإسلامي هي: المنتقى في شرح موطأ مالك ، وأحكام الفصول في إحكام الأصول ، والتعديل والتجريح فيمن روى عنه البخاري في الصحيح ، والسراج في علم الحجاج ، والتسديد إلى معرفة التوحيد ، والحدود ، والإشارة ، وسنن الصالحين وسنن العابدين وسبل المهتدين ، والناسخ والمنسوخ في الأصول ، واختلاف الموطآت ، والجرح والتعديل ، وشرح المنهاج ، وتفسير القرآن ، وسنن المنهاج وترتيب الحجاج[٢٤].

شعره :

إلى جانب كونه فقيهاً متكلماً فهو أديب وشاعر[٢٥] . فله شعر كثير جداً[٢٦] ونثر أهتم بهما منذ صغرهِ ، فجعل قراءة الأدب احد محاور عنايته ، وشاعريته ، وقد كان شاعراً مطبوعاً جيد العبارة ، حسن النظم ، شعره هادف يعمل على خدمة أغراض بنائهِ ، فجملة أبياته وشعره تدلان على ذوقه الأدبي ونبوغه الشعري .

كان في مقتبل حياته شغفاً بالشعر ، وكان التكسب بالشعر جل بضاعته ، إلا أنه لم يكن ليرتقي به فيحسب في عداد فحول الشعراء من أبناء عصره في الأندلس ، كالمعتمد بن عباد ، وابن زيدون وغيرهما ، فهو لم يأت – في الأعم الأغلب – بمعان غير مطروقة ، ولا بصورٍ مستحدثة إلا ما ندر ، وسوف نتطرق إلى ذلك من خلال إيراد شعره.

١. المديح :

شغل هذا الفن مساحة واسعة بين فنون الشعر ، ويعد وليد عاطفة الإعجاب التي تثير في نفس المادح الانفعالات التي تدفعه إلى نظم الشعر في إظهار شعوره نحو الممدوح [٢٧].

وكان أبو الوليد شاعراً مجيداً ، له نظم رائق في المديح ، ولاسيما في مقتبل عمره ، لأنه كان مقلاً من الناحية المادية فأراد إن يحسن حالته المعيشية ، إذ يقول ابن بسام:(إن أبا الوليد الباجي نشأ وهمته في العلم ، وإنه بدأ بالأدب فبرز في ميدانه ، وجعل الشعر بضاعته ، فنال به من كل الرغائب)[٢٨]. وإنه حقق ما يصبو إليه ، فحين مدح معز الدولة ، عينه أميراً لحلب وقاضياً عليها ، وهذا المنصب حقق له الشهرة والعيش الكريم ، وفي هذا الفن له أشهر مقطوعتين :الأولى قالها في المشرق وقال الثانية في الأندلس ، فالأولى في مدح الأمير معز الدولة أبي علوان ثمال بن صالح [٢٩] ، وأما الثانية ففي مدح المعتضد بالله عباد ملك أشبيلية[٣٠] .

يقول في الأولى :

لِرياهمُ في عَرْفِ ربَعْكِ عنوانُ ومن حسُنهم في حسُنِ مغناكَ تَبيانُ
وفيكَ من الحيَ الذينَ تحملوا مخايلُ اغصانٍ تَميسُ وكثبانُ
وكم ليلةٍ فيها تَعسّفتُ حولها وكالئها مني مشبحُ ويقظانُ
سرينا كما يسري الخيالُ وغضضت على ركِبنا من ناظرِ الليلِ أجفانُ
لبسنا برودَ الليلِ حتى تشققت جيوبُ تضيءُ بالصباح واردانُ
حويتَ معزَ الدولةِ الملكَ فاعتزى يذكركَ في الآفاقِ ملكُ وسلطانُ
فللمجدِ يسلكُ قد أجيدَ نظامهُ وأنتَ لذاكَ السلكِ درُ ومرجانُ[٣١]

ويقول في الثانية :

عبادُ استعبدَ البرايا بأنعم تبلغُ النعائمْ[٣٢]
مديحهُ خيمُ كل نفسٍ حتى تغنَتْ بهِ الحَمائمْ[٣٣]

في المقطوعة الأولى خص أبو علوان بصورة متميزة تعبر عن معنى الكرم بأسلوب جميل ، فخير أبي علوان بادٍ على من قصدوه ، وكأنهم ارتووا من رائحة ريعه والحسن بان عليهم من جمال منزله ، وأثار نعمته عليهم ظاهرة في عمرانهم وأشجارهم التي أخضرت وأينعت فأخذت أغصانهم تتمايل فرحاً وسروراً ، وأنت جدير بالملك والسلطان وان تعتز بالنسب إليك بعد أن اعتليت سدة الحكم بمقدرة واقتدار ، وإذا كان للمجد خيط يحكم نظمه ، فإنك حبات الدر والمرجان التي تزين هذا الخيط .

أما المقطوعة الثانية فمدح بها المعتضد بالله بأنه استطاع في عطاياه التي بلغت منزلة رفيعة أن تأسر قلوب رعيته ، وأن تغني باسمه والثناء عليه الطير والإنسان .

وله قصيدة ثانية في مدح معز الدولة يقول فيها :

محل الهوى من سر حبك أهل ... وصرف النوى عن شمل شوقي غافلُ
ولله طيف لا يلم كأنما ... له سهادي في الزيارة عاذلُ
غدا نافراً لا أستطيع اقتناصهُ ... ولو أن لي يوم الكثيب حبائلُ[٣٤]

ولم يقتصر مدحه في المشرق على معز الدولة ، بل مدح أستاذه في الموصل ، الذي أصبح فيما بعد قاضي قضاة بغداد ، وهو أبو جعفر أحمد السمناني [٣٥] . يقول فيها :

يا بعد صبرك اتهموا أم انجدوا ... هيهات ملك تصبر وتجلدِ
يأبى سلوك بأرق متألق ... وشميمُ عرف عرارةٍ ومغردِ
في كل أفق لي علاقةُ خولةٍ ... تهدي الهوى وبكل ارض تهمدِ
ما طال عهدي بالديار وإنما ... إنني معاهدها أسى وتبلدِ
ولقد مررت على المعاهد بعدما ... لبس البداءة رسمها المتأبدِ
فاستنجدت ماء الدموع لبينهم ... فتتابعت حتى توارى المنجدِ
طفقت تسابقني إلى الصبا ... تلك البي ومنال شاوى ببعدِ
هذا الشهاب المستضاء بنوره ... علم الهدى هذا الإمام الأوحدِ
هذا الذي قمع الضلال بعدما ... كانت شياطين تمردِ[٣٦]

استهلها بالنسيب والوقوف على أطلال الأحبة ، إذ سار على خطى الشعراء القدامى ، وفي ذلك شبه حاله بحال طَرَفة في وقوفه على أطلال خولة . ويذكر ان الصبر نفذ منه بعد مفارقته الحبيبة ونزولها في تهامة أو نجد ، ولم يجد سلواناً له سوى النجم المتألق ورائحة عرارة وتغريد الطيور ، ويتحدث على تقلبات الأيام وقسوة الدهر ، ثم خلص إلى مدح القاضي بسماحة الخلق وكرم النفس وعلو الشأن ، وإنه الشهاب المضيء ، وإنه استمد نوره من نور القاضي حامل راية الهدى وأزال الشرك والضلال الذي كان سائد في الأرض .

وبهذا نجد أن المديح عند أبي الوليد الباجي على الرغم من تحدثه عن عدد من ممدوحيه بإعجاب ، إلا أنه لم يلجأ إلى المطولات الشعرية ، وإنما لجأ إلى المديح مباشرة ، وأنه لم يتطرق في مدحه للملوك إلى ذكر الحوادث التاريخية الهامة في حياتهم ، أو إبان حكمهم على الرغم من حصول مثل هذهِ الحوادث .

٢. رثاء الأبناء:

خصصت هذا العنوان لأن أبا الوليد الباجي لم يرثِ غير ولديه ، وأن رثاء الآباء لأبنائهم ليس فناً جديداً في أدبنا العربي ، إنما هو ظاهرة شعرية موجودة منذ بدء الأدب وحفلت دواوين الشعراء بهذا الفن . وعلى الرغم من اختلاف العصور وتطور الشعر إلا أن مشاعر الحزن

عند رثاء الآباء لأبنائهم تكاد تكون واحدة ، ويظل في كل عصور أدبنا العربي أصل الرثاء – إن جاز التعبير – وأصدق أنواع الرثاء عاطفة ، وأعمقها من بين ألوان الرثاء الأخرى في النفوس ، (فإذا كانت أصوات النائحة قد ارتفعت على مر العصور مع موت الإخوة ، فان هذه الأصوات قد بحت مع موت الأبناء وافلاذ الأكباد ، فإن حرارة الأمهات والآباء بهم تأكل قلوبهم وأفئدتهم ، إذ يرون كأن أجزاءً وأعضاءً من أجسادهم تبرت تبرا)[٣٧] ، فمصيبة الوالد في ولده تصيبه في سواد قلبه ، لهذا نرى الآباء في رثائهم لأبنائهم يفرغون حزنهم وألمهم في قوالب شعرية مملوءة بالثكل والمرارة والحرقة ، وتتعاظم المصيبة إذا كان ولده مغتربا ، وتزداد إذا توفي له ولدان . فان موت ولد يدمي القلب ويحطمه ، فكيف به الحال إذا توفي له ولدان أثناء اغترابهما ، أي إن المصيبة أعظم والفاجعة أمر ، إذ الألم ألمانِ ألم الغربة وألم الموت ، وهذا ما نجده أو ما حصل مع شاعرنا . إذ توفي له ولدان وهما مغتربان ، فندبهما بشعر حزن باكٍ بأروع المعاني.جاء فيه :

رعى الله قلبين استكانا ببلدةٍ ... هما أسكتاها في السوادِ من القلبِ
لئن غيبا عن ناظري وتبوءا ... فؤادي لقد زاد التباعدُ في القربِ
وابكي وابكي سأكنيها لعلني ... سأنجد من صحب واسعد من سحبِ
فما ساعدت ورق الحمام أخا أسي ... ولا روحت ريح الصبا عن أخي كربِ
ولا استعذبت عياني بعدهما كرى ... ولا ظمئت محمول على المركب الصعبِ
احن ويثني اليأس نفسي على الأسى ... كما اضطر محمول على المركب الصعبِ[٣٨]

إن الشاعر يبتهل إلى العلي القدير أن يرعى بعنايته ولطفه ذاك القبرين اللذين ضما ابنيه ، اللذين استكانا ببلدة نائية ، لأجلهما أسكن الشاعر تلك البلدة التي ضمت ابنيه سواد قلبه ، وان بالهُ لم يهدأ وعينه لم تنقطع عن البكاء ، حتى يزور القبرين الذي وارهما ويضمه إلى صدره . وان زيارته لتلك الأرض ستساعده على ذرف الدموع أكثر ، لعله يشفي في البكاء عليهما غليله ، وتتأجج صدره بالحزن على فلذتي كبده ، ولم يستطع الحمام بغنائه على الأرائك ، ونسيم الصبا المنعشة تخففا من تفجعه ولوعته ، وهو منذ أن عَلِمَ بوفاتهما وعينه لم تستعذب طعم النوم ، فهو في قلق وسهر دائمين ، كذلك لم تطب لنفسه أي لذة كانت ، فالحياة تحلو بهما ، وهو في حالة اشتياق وحنين دائمين لهما ، ولكن ماذا عساه أن يفعل؟فاليأس والقنوط يخففان من توهج حزنه ، ومع أنه لا يريد لحرقة هذا الحزن أن تحبو ، ولكنه مجبر على ذلك ، فالأبيات تفيض بالشعور الصادق الذي يعبر عن نفسٍ مكلومة قد هدها الهم واضناها الحزن.وإن صاحبها لجزع أشد الجزع .

وله قصيدة ثانية في رثاء ابنه محمد يبدو أنه توفي قبل شقيقه. يقول فيها :

أمحمـــد أن كنـــت بعـــدك صـــابراً ... صـــبر الـــسليم لمـــا بـــه لا يـــسلمُ[٣٩]
ورزئـــت قبلـــك بـــالنبي محمـــد ... ولـــرزؤه أدهـــى لـــدي وأعظـــمُ
فلقـــد علمـــتُ بـــأنني بـــك لاحـــقُ ... مـــن بعـــد ظنـــي إننـــي متقـــدمُ
لله ذكـــــر لا يـــــزال بخـــــاطري ... متـــصرف فـــي صـــفوه مـــتحكمُ
فـــإذا نظـــرتُ فشخـــصهُ متخيـــل ... وإذا أصـــــخت فـــصوتهُ متـــوهمُ
وبكـــل ارض مـــن أجللـــك روعـــةُ ... وبكـــــل قبـــــر عبـــــرة وتـــــرنمُ
فإذا دعوت سواك حـــاد عـــن اســـمهِ ... ودعـــاه باســـمك مقـــول بـــك معـــرم
حكـــم الـــردى ومنـــاهج قـــد ســـنها ... لأولـــى النهـــى والحـــذقِ قبـــلُ مـــتممُ
فلـــئن جزعـــتُ فـــان ربـــي عـــاذرُ ... ولئن صبرت فان صـــبري الحـــرمُ[٤٠]

لقد وفق الشاعر في نقل ما يعانيه من مرارة وألم بسبب فقده فلذة كبده ، وذلك بعاطفته الأبوية الصادقة عن طريق وصفه لعظم الكارثة التي حلت به ، وتصوير حالته النفسية التـــي بات عليها بعد رحيل ابنه ، فشخص الولد متمثل إمام عيني والده ، وصوته لم يبرح عن إذن أبيه ومن غير شعور منه ينطلق اسم ولده الفقيد على لسانه وتترنم به شفتيه.

من خلال هاتين المقطوعتين في رثائه لأبنائه ، نرى أنه مال في لغته إلى الـــسلاسة والسهولة ، ولم يلجأ إلى الألفاظ التي تحتاج دلالتها إلى معجم ، وسبب ذلك رثـــاؤه صـــادق وإحساسه بالحزن والألم ، وكلما كان الشاعر صادقاً عاد إلى سجيته وفطرته ، وسجية أبـــي الوليد هي السهولة والبعد عن التعقيد ، فلذا كانت ألفاظه سهلة واضحة المعنى . ونجح في أن ينقل إلينا تجربته وما يعانيه من أسى من خلال أدق معاني الحزن وألطفها حتى نفـــذت إلـــى أعماق وجداننا.وعلى الرغم من عظم الكارثة فإنه لم يجزع ولم يبتعد عن نداء العقـــل انمـــا تحمل وتصبر وذلك يدل على إيمانه القوي ورضاه بالقدر ، وهذا ليس بعيداً عن أبي الوليد ، وهو شخص متدين ومن عائلة متدينة .

٣. الزهد :

الزهد لغة:(الرغبة عن الشيء)[٤١].وقد خصص بما يكون الرغبة فيه عن الدنيا، أي: انصراف الإنسان عن متاع الدنيا ، والالتفات إلى عبادة الله وطاعته ، وإقناع الذات أن الفناء لاحق كل شيء ، وأن العمر ، مهما طال سينتهي ، ولا شيء باقٍ على حاله [٤٢].

واختلفت دواعي لجوء الشعراء إلى الزهد ، فمنهم من أصبح زاهداً بعد أن أسرف في اقتراف المعاصي واقتناص الملذات بكل أنواعها ، فأراد أن يكفر عن خطاياه ، ومنهم من لجأ إلى الزهد بعد فشله في إدراك سبل اللهو والترف ، فانطوى على نفسه يائـــساً مـــن الحيـــاة

ومتاعها . ومنهم من لجأ إلى الزهد بعد إن رأى المصائب تنهال عليه وتنوشه من كل جانب وهو يقف أمامها عاجزاً لا يحرك ساكناً.ومنهم من يلجأ إلى الزهد لاقتناعه بداية ، وعن أدراك ودراية أن الحياة الدنيا إنما هي دار مرور وعبور لا دار دوام واستقرار ، فهو يطمع في رضا الله ، ومن أجل تحقيق هذا ، فيزهد في الحياة ويمتنع عن ملاذها ، ويعد شاعرنا من هذا النوع ، لأنه لم يقل شعره في الزهد نتيجة حرمان أو بعد انحراف وانغماس في الشهوات ، لأنه كما ذكرنا في حياته أنه كان سوياً وقد كانت نشأتهِ دينية ، مما أثر في سلوكه هذا النهج ، فهو يعلم أن حياته في هذه الدنيا قصيرة ، وانه راحل عنها ، فلماذا لا يجعل حياته في طاعة الله ؟ كما يقول :

إذا كنت اعلم علما يقينا بان جميع حياتي كساعة
فلم لا أكون ضنيناً واجعلها في صلاح وطاعة(٤٣)

ويقول أيضاً :

تبلغ إلى الدنيا بأيسر زاد فانك عنها راحلُ لمعادِ
وغض عن الدنيا وزخرف أهلها جفونك وأكحله بطول سهادِ
وجاهد عن اللذات نفسك جاهداً فأن جهاد النفس خير جهادِ
فما هذهِ الدنيا بدارِ إقامةٍ فيعتد من إغراضها بعتادِ
وما هي إلا دار لهو وفتنةٍ وان قصاري أهلها لنفادِ(٤٤)

في هذه المقطوعة يدعو شاعرنا إلى الإكثار من زاد الآخرة ، وذلك عن طريق إتباع أوامر الله واجتناب نواهيه وترك مباهج الدنيا ومفاتنها فلإنسان راحل عنها وأن نذكر دوماً يوم الحساب ، ونستعد له بجهاد النفس ، فالإنسان مهما عبث وغوى وهزل ومجن ومهما طال به العمر فعودته إلى الله ، كي يحاسبه على أقواله وأفعاله .

إن شعر أبي الوليد في الزهد أقرب ما يكون إلى الخطب الدينية يلقيها على مسامع الناس ، أو دروس في وعظ المسلمين وإرشادهم ، لذا يختار الألفاظ السهلة.وكان يقصد في ذلك تيسيراً لفهمها وسرعة حفظها لدى أكبر عدد ممكن من القراء .

ومن شعره دعوته الناس لقيام الليل :

قد افلح القانت في جنح الدجى يتلو الكتاب العربي النيرا
فقائماً وراكعاً وساجداً مبتهلاً مستعبراً مستغفرا
له حنينُ وشهيقٌ وبُكا يبلُ من أدمعه ترب الثرى
أن لسفرُ نبتغي نيل المدى ففي السرى بغيتنا لا في الكرى
من ينصب الليل ينل راحته عند الصباح يحمد القوم السرى(٤٥)

ومنها دعوته الناس لحمد الله وشكره على النعم التي أنعم بها عليهم ، كالسمع والبصر والمقدرة على النطق وشكر الله على هذه النعم .

الحمـــــد لله ذي الآلاءِ والـــــنعم ومبـــدع الـــسمع والإبـــصار والكلـــمِ
من يحمـــد الله يأتيـــه المزيـــد ومـــن يكفر فكـــم نعـــم آلـــت إلـــى نقـــم[٤٦]

كما يوعظ الناس بقوله :

إذا كنـــــت تعلـــــم أن لا مجيـــــر لذي الذنب من هـــول يـــوم الحـــساب
فـــــاعصِ الإلـــــه بمقـــــدار مـــــا تحـــب لنفـــسكِ ســـوء العـــذاب[٤٧]

ونجد في زهديات شاعرنا تضمين واقتباس من آيات القران الكريم لفظاً ومعنى ، مثل قوله :

يـــا قلـــب إمـــا تلهنـــي كاذبـــاً أو صـــادقاً عـــن الهـــدى جـــائرا
تـــشغلني عـــن عمـــلٍ نـــافعٍ فـــي موقـــفٍ ألقـــاك لـــي ضـــائرا
أحـــر بـــان تـــسلمني نادمـــاً إن لـــم الـــق الله لـــي عـــاذرا
وحـــاق بـــي مـــا جـــاء عـــن ربنـــا (ووجـــدوا مـــا عملـــوا حاضـــرا)[٤٨]

إذ أتى في عجز البيت الأخير بلفظ الآية لقوله ﷻ : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾[٤٩] ، وضمنها شعرهِ .

وتارة يأتي بمعنى الآية ويصوغها بألفاظه كما سنرى في قوله :

الحمـــــد لله حمـــــد معتـــــرفٍ بـــان نعمـــاه لـــيس نحـــصيها
وان مـــا بالعبـــاد مـــن نعـــم فـــان مـــولى الأنـــام موليهـــا
وان شـــكري لـــبعض أنعمـــه مـــن خيـــر مـــا نعمـــةٍ يواليهـــا[٥٠]

فقد صاغ البيت الأول من قوله ﷻ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[٥١] والبيت الأخير صاغه من قوله ﷻ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[٥٢] .

وبهذا فان ظاهرة تأثر أبي الوليد بالقران الكريم لفظا ومعنى ، تدل على مدى تعلقه بتخصصه ، وأنه في زهدياته لم يترك العنان لخياله ، فجاءت خالية من الصور والتشبيهات ، كما ولم يلجأ إلى المحسنات البديعية اللفظية ولم يجعل لمعانيه مقدمات ، ولا مطولات شعرية فكان همه الوصول إلى عقول سامعيه وقلوبهم عن طريق المعاني الواضحة والأسلوب السهل ، وبأقل عدد ممكن من الأبيات وأيسر التراكيب وأسهل الألفاظ .

الخاتمة

وهكذا انتهت جولتي مع أبي الوليد الباجي . تلك الجولة التي حاولت فيها إضاءة جوانب متعلقة بشاعرنا ، الذي نشأ وسط أسرة علم وتقوى ونبل وحسن تدين . وقد اشتهر وذاع صيته في الأندلس والمشرق على انه فقيهاً ، مالكي المذهب ، وله مؤلفات جليلة في هذا المضمار وقد تطرقت إليها في البحث.إلى أنه شاعر متميز على الرغم من عدم نظمه في كل أغراض الشعر المعروفة . فهو لم ينظم في الغزل ولا في الهجاء ، لأنه كان يجنب شعره رفث القول ، وإن هذين الغرضين لا يلتقيان به وكونه فقيهاً ملتزماً. وقصر شعره على ذاته ، وبعد عودته من المشرق اقتصر في شعره على غرضي الزهد والرثاء . وقصر رثاؤه على ولديه الذين توفيا في حياته فكان من أصدق ما قال ومن أروع المعاني ، وكان يتخلل زهده آيات من القران الكريم ، وأنه من خلال شعره يعظ الناس ويرشدهم إلى الفلاح والثناء وشكر الله على نعمه .وقد خالف أبو الوليد أدباء عصره حينما لم يغرق أشعاره في بحر المحسنات البديعية والصور البيانية . فلم يكن متكلفا ، بل وردت في قصائده عفو الخاطر . ولم يلجأ إلى الألفاظ المعجمية ، لأنه يريد لهذا الشعر أن ينتشر بين الناس ، وأن يفيد من معانيه النبيلة أكبر مجموعة من الناس .

وبعد فإن شعر أبي الوليد بجملته لا يرتقي به ، لكي يحسب من فحول شعراء عصره في الأندلس كالمعتمد بن عباد وابن زيدون وغيرهم .

هوامش البحث وقائمة المصادر والمراجع

(١) فوات الوفيات والذيل عليها ، محمد شاكر الكتبي –تحقيق: د.أحسان عباس ، د.ط ، د.ت ، دار الثقافة ، بيروت –لبنان ، ٢ : ٦٤ .

(٢) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، ابو القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال (٥٧٨هـ) ، د.ط ، د.ت ،١: ١٩٧ ، والعبر في خبر من غبر ، للحافظ الذهبي (٧٤٨هـ) – تحقيق : فؤاد سيد ، ط٢ ، مطبعة الكويت ، ١٩٨٤، ٣: ٢٨٢ ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، د.ط ، مكتبة القدسي ، سنة ١٣٥٠ ،٣: ٣٤٤ ، ينظر : الأعلام ، خير الدين الزركلي ،ط ٣ ،ج ٣ :١٨٦ .

(٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٨١هـ) – تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط١ ، مطبعة السعادة ، مكتبة النهضة المصرية (١٣٦٧ – ١٨٤٨م) ،٢: ١٤٢ .

(٤) تاريخ مدينة دمشق،أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (٥٧١هـ) – دراسة وتحقيق : محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري ، د.ط ، دار الفكر ، ١٤١٥هـ –١٩٩٥م ،٢٢: ٢٢٧ ، وخريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب والأندلس) ، عماد الدين الاصبهاني – تحقيق : آذرتاش آذرنوش ،نقحه وزاد عليه : محمد العروسي ، والجيلاوي ، والمرزوقي ، د.ط ،تونس ،١٩٨٦، ٣: ٤٧٤، وقلائد العقيان ، الفتح بن خاقان ، مطبعة التقدم العلمية ، القاهرة ، ١٣٢٠ ، ١٩٦، ومعجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، د.ط ، د.ت ، دار التراث العربي ،بيروت ،١١: ٢٤٧ .

(٥) تاريخ مدينة دمشق ،٢٢: ٢٢٦ .

(٦) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (٥٩٩هـ) ، د.ط ، د.ت ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ومؤسسة الخانجي ، مصر ،١٨٨٣ ، ٢٨٩ .

(٧) ابو ذر عبد بن احمد الهروي ، ويعرف بابن السماك ، ألف معجماً لشيوخه ، وعمل الصحيح وصنف التصانيف ، وكان يحج عاما ويحدث ويرجح وهو على مذهب الإمام مالك،كان زاهداً ورعاً توفي العام (٤٣٤هـ) . ينظر:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، أحمد بن محمد المقري التلمساني – تحقيق : د.إحسان عباس ، ط١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ ،٢: ٧٠–٧١ .

(٨) الصلة ١ : ١٩٧ ، وفيات الاعيان ٢ : ١٤٢، وطبقات الحفاظ ، عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي (٩١١هـ) ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٣ ،١: ٤٣٩ ،ونفح الطيب ٢: ٦٧، وأبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم ، صديق بن حسن القنوجي (١٢٤٨–١٣٠٧) – تحقيق: عبد الجبار زكار، د.ط ،دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٧٨ ،٣ : ١٤٥ ،ومعجم الأدباء ١١: ٢٤٦ ،والأعلام٣: ١٨٦

(٩) هو ابو الفضل: محمد بن عبد الله بن عمروس ، إمام فاضل ، وكان احد فقهاء بغداد على المذهب المالكي ، وكان من حفاظ القران ومدرسيه ، إليه انتهت الفتوى في الفقه بمذهب مالك ببغداد . توفي العام (٤٥٢هـ) ، ينظر:ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، للقاضي عياض – تحقيق : د.أحمد بكير محمود ، د.ط ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ٤ : ٧٦٢ ، والوافي

بالوفيات باعتناء : برندراتكه ، د.ط ، دار النشر فرانز شتاييز – شتوتغارت ،١٤١١هـ – ١٩٩١م ، دار صادر ، بيروت ، ٤٥٢ .

(١٠) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابو جعفر السمناني ولد (٣٦٠هـ) وهو قاضي الموصل وشيخ الحنفية ، سكن بغداد وحدث عن المرجي والدار قطني ، قال الخطيب : كتبت عنه وكان صدوقاً حنفياً فاضلاً يعقد مذهب الأشعري ، وله تصانيف وتوفي (٤٤٤هـ) ، ينظر:الأعلام ، ٦ :٢٠٦ .

(١١) نفح الطيب ،٢ : ٧٦ .

(١٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابو الحسن علي بن بسام الشنتيني (٥٤٢هـ) – تحقيق : سالم مصطفى البدري ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان،١٤١٩هـ–١٩٩٨م ، ٢ :٥٦ ، وفيات الاعيان ، ٢ : ١٤٢ ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، عبد الله بن أسعد اليافعي ، د.ط ، مؤسسة الاعلمي ، بيروت ، ١٩٧٠،والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب – تحقيق : د. محمد الاحمدي ابو النور ، د.ط ، د.ت ، دار التراث ، القاهرة ، ١ : ١٢٠ .

(١٣) الصلة ، ١ : ١٩٨ ، العبر في خبر من غبر ، ٣ : ٢٨٢ ، نفح الطيب ، ٢ : ٦٧ .

(١٤) نفح الطيب ، ٢ : ٧٦ .

(١٥) العبر في خبر من غبر ، ٣ : ٢٨٢ ، شذرات الذهب ، ٣ : ٢٤٥ ، الأعلام ، ٣ : ١٨٦ .

(١٦) نفح الطيب ، ٢ : ٧٧ .

(١٧) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ :٥٦ .

(١٨) الديباج المذهب ، ١ : ٣٧٩ .

(١٩) نفح الطيب ، ٢ : ٧٧ .

(٢٠) العبر في خبر من غبر ، ٣ : ٢٨٢ ، شذرات الذهب ، ٣ : ٣٤٤ ، نفح الطيب ، ٢ : ٧٨

(٢١) فوات الوفيات ، ٢ : ٦٥ .

(٢٢) الصلة ، ١ : ١٩٩ . وفيات الأعيان ، ٢ : ١٤٢ .

(٢٣) تاريخ مدينة دمشق ، ٢٢ : ٢٢٧ .

(٢٤) تاريخ مدينة دمشق ، ٢٢ : ٢٢٥ ، وفيات الاعيان ، ٢ : ١٤٢ ، شذرات الذهب ، ٣ : ٣٤٥ ، نفح الطيب ، ٢ : ٦٩ ، فوات الوفيات ، ٢ : ٦٤ ، الأعلام ، ٣ : ١٨٦ .

(٢٥) نفح الطيب ، ٢ : ٦٧ .

(٢٦) أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء ، الملك المنصور محمد بن عمر الأيوبي (٥٦٧هـ) –تحقيق : د. ناظم رشيد ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ٢٠٠١م،١١٣ .

(٢٧) ينظر: دراسات في الشعر العربي ، عطا بكري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ط١ ، ١٩٦٧م،٢٨٥.

(٢٨) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٥٥ .

(٢٩) ثمال بن صالح : الملقب بمعز الدولة صاحب حلب . كان كريماً فأغنى أهل البلاد وكان حليماً ، وأوصى بحلب لأخيه عطية بن صالح فملكها ، وله جولات مع الروم ، توفي في حلب سنة (٤٥٣هـ) ، ينظر:الكامل في التاريخ ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد المعروف بابن الاثير ، د.ط ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م ، ٩ : ٢٣٠–٢٣٣ ، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، ط١ ، دار صادر ، بيروت ، حيدرآباد ، ٨ : ٢٢٧ .

(٣٠) المعتضد بالله عباد : يسمى فخر الدولة،وهو زعيم جماعة أمراء الأندلس في وقته ، وكان على تجردفي أحكام التدبر لسلطانه ذا كلف بالنساء،وهو ترك شعراً جمعه ابن اخيه اسماعيل في ديوانه ، توفي سنة (٤٦١هـ) ، ينظر : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٤٥ ، والحلة السيراء ، محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي المعروف بابن الابار – تحقيق : د. حسين مؤنس ، د.ط ، القاهرة ،١٩٦٣م ، ٢: ٣٩.

(٣١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٦٠ .

(٣٢) الخيم : الطبع والسجية .

(٣٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٥٩ ، نفح الطيب ، ٢ : ٧٦ ، معجم الأدباء ، ١١ : ٢٤٩ ، والنعائم : من منازل القمر .

(٣٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٥٩-٦٠ ، نفح الطيب ، ٢ : ٨٤ .

(٣٥) محمد بن أحمد السمناني : ابو جعفر قاضي حنفي أصله من سمنان العراق ، ولي القضاء بالموصل الى أن توفي ، وكان مقدم الأشعرية في وقته ، شنع عليه ابن حزم ، وله تصانيف في الفقة ، ولد في العام (٣٦١هـ) وتوفي في العام (٤٤٢هـ)،ينظر:الأعلام ، ٦ : ٢٠٦ .

(٣٦) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٥٨ ، معجم الأدباء ،١١ : ٢٤٩ ، نفح الطيب ، ٢ : ٧٦ .

(٣٧) فن الرثاء ، د. شوقي ضيف ، ط٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ١٧ .

(٣٨) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٥٩ ، المغرب في حلى المغرب ، لابن سعيد المغربي – تحقيق : د. شوقي ضيف ، ط٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥م ، ١ : ٤٠٥ ، نفح الطيب، ٢ : ٨٤ ، وفيات الأعيان ، ٢ : ١٤٢ ، معجم الأدباء ، ١١ : ٢٤٩ .

(٣٩) السليم : الذي لدغته الأفعى .

(٤٠) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٥٩ ، نفح الطيب ، ٢ : ٧٥ .

(٤١) لسان العرب ، لابن منظور ، مادة (زهد) .

(٤٢) ينظر:الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، د.محمد مجيد السعيد، دار الرشيد للنشر، ٢٥٩.

(٤٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٥٧ ، الصلة ، ١ :١٩٨ ،بغية الملتمس :٢٨٩ ، وفيات الأعيان ، ٢ : ١٤٢ ، المغرب في حلى المغرب ، ١ : ٤٠٤ ، نفح الطيب ، ٢ : ٧٤ ، فوات الوفيات ، ٢ : ٦٥ ، معجم الأدباء ، ١١ : ٢٤٩ ، الوافي بالوفيات ، ١٥ :٣٧٤ ،

(٤٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٦٠-٦١ ، معجم الأدباء ، ١١ :٢٥٠ .

(٤٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٦١ ، تاريخ مدينة دمشق ، ٢٢: ٢٢٩ .

(٤٦) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٦١ .

(٤٧) فوات الوفيات ، ٢ : ٦٥ ، الوافي بالوفيات ، ١٥ :٣٤٧ .

(٤٨) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٦١ .

(٤٩) سورة الكهف : ٥٠

(٥٠) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ٢ : ٦١ ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ٣ :١٠٩ .

(٥١) سورة إبراهيم : ٣٤

(٥٢) سورة إبراهيم : ٧٠ .